

قراءات

الكفاح المسلح والبحث عن دولة:

الحركة الوطنية الفلسطينية،

*1993 – 1949

Armed Struggle and the Search for State:

The Palestinian National Movement,

1949-1993

Yezid Sayigh

Oxford: Clarendon Press, 1997.

953 pages.

قلما يتربص المرء بتشوق الكتب الجديدة الصادرة بشأن النزاع العربي - الإسرائيلي، لكن هذا الكتاب هو دراسة مهمة لموضوع يحظى باهتمام سجال كبير. ولا نغالي لو قلنا إنه قد يكون إحدى الدراسات الأكثر شمولية التي ظهرت حتى الآن عن الحركة الوطنية الفلسطينية. فالعرض الذي يقدمه صايغ للتاريخ السياسي - العسكري الفلسطيني، مع التفاتة خاصة إلى منظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف.)، يتميز بدرجة من التفصيل والدقة اللذين يرضيان المتخصصين تحديداً، كما يمكن لغير الأكاديميين أن يقرأوه ويقدرّوه. وقد يجد الدارسون أن الكتاب يحتوي على القليل من النظريات والرطانة الأكاديمية، لكن هذه الصفة بالذات هي التي ستجعل العامة اللبنانيين والفلسطينيين تقبل على قراءته في حال ترجمته إلى العربية. ولكل فصل في الكتاب أهميته، إذ يروي بالتفصيل كل ما يجب أن يروى. وما فعله صايغ في هذا الكتاب لم يسبق أن فعله أحد، فهو يتتبع نشوء التاريخ العسكري الفلسطيني وتطوره (كان يجب إعطاء الكتاب عنواناً أكثر دقة بصفته تاريخاً عسكرياً للحركة الوطنية الفلسطينية). وقد نجح صايغ في القيام بهذه المهمة الصعبة جداً بفضل إلمامه الواسع بالعلاقات التنظيمية المعقدة بين فصائل م. ت. ف. كلها، وضمن كل فصل على حدة. كما استطاع صايغ، بصفته باحثاً متعمقاً، أن يربط

* المصدر: *Journal of Palestine Studies*, Vol. XXVIII, No. 3, Spring 1999, pp. 92-94.

الموضوع الفلسطيني بأطره العربية والإقليمية الأوسع. وهذا الإنجاز الكبير ليس حصيلة مهارات تحليلية فائقة واهتمام عميق بأدق التفاصيل فحسب، بل أيضاً ثمرة عمل دؤوب. إذ إن الكتاب يستند إلى وثائق أولية وأدبيات سياسية للشعب الفلسطيني، بالإضافة إلى عدة مقابلات مع شخصيات بارزة وأخرى أقل بروزاً، تمثل مختلف الآراء والاتجاهات العقائدية في الحركة الوطنية الفلسطينية. وتجدر الإشارة إلى أن معرفة المؤلف العميقة بموضوعه جعلته قادراً على تمحيص ما كان يسمعه ممن قابلهم.

وعلاوة على العرض التاريخي للحركة الوطنية الفلسطينية، يتضمن الكتاب نقداً عميقاً لمسيرة الكفاح المسلح الذي دعت إليه فصائل م. ت. ف. ومارسته بأساليب مشوهة أحياناً. ويتميز نقد المؤلف بالموضوعية التامة، حتى إن البعض قد يلومه على الكتابة عن التاريخ المأساوي المعاصر للشعب الفلسطيني بقليل من العاطفة أو الوجدانية أو الحساسية أو التعاطف، هذا إن وُجدت. فصايف يصف تلقائياً أعمال م. ت. ف. بـ "الإرهاب" (ص 210، 306)، بينما يمتنع من إعطاء هذه الصفة للاعتداءات الإسرائيلية على المدنيين العرب (ص 2100). ومما يثير المزيد من الدهشة أنه يسمي الغزو الإسرائيلي للأراضي اللبنانية "مهمة" (mission) (ص 312). ولئن كان الكثير من سلوك م. ت. ف. جديراً بالنقد، فمن المؤكد أن أعمال العنف الإسرائيلية، طوال العقود الماضية، أدت إلى مقتل أو إصابة عدد من الأبرياء أكثر كثيراً مما أدت إليه أعمال م. ت. ف. ويكتفي صايف بأن يصف الاعتداءات الإسرائيلية بأنها "عنيفة" (vigorous) (ص 202). ومن شدة حرصه على عدم إبداء تعاطف مع موضوع دراسته، فهو يرفض حتى اعتبار الحركة الصهيونية أو إسرائيل مسؤولتين عن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين (ص 4). وعلاوة على ذلك، فإن موقفه من حوادث "أيلول الأسود" في الأردن متعاطف تماماً مع وجهة النظر الأردنية الرسمية، إذ إنه يلقي باللائمة على فصائل م. ت. ف.، ويعتبرها المسؤولة الأولى عن النزف الدموي، وعن طرد (إذا تجاوزنا قتل) محاربي المنظمة؛ وفي رأيه أنه "كان لدى الحكومة الأردنية سبب معقول، هو رغبتها في بسط سيطرتها على الدولة الفلسطينية القائمة داخل الدولة، وفي استعادة سلطتها" (ص 243). ومع أن المؤلف يُبدي بعض التعاطف مع دور أبو

جهاد (ص 382، 407، 689)، فإنه لا يسمح لتحليله بأن يخدم مصلحة أو برنامج أي زعيم أو أية حركة. إنه يبدو محايداً تقريباً، كلما كان ذلك ممكناً، أو محبّذاً، فيما يتصل بمفاهيم "الصواب والخطأ" (ص 4) في النزاع العربي - الإسرائيلي نفسه.

ويوجه صايغ نقداً لا ذعاً إلى الاستراتيجية العسكرية - أو إلى فقدانها - لدى فصائل م. ت. ف. كافة. وفي الفصل الثامن من الكتاب، يعرض بصورة رائعة مسيرة الكفاح المسلح الفلسطيني من حيث النظرية والتطبيق. وقد أصاب حين أشار إلى أن الحركة السياسية الفلسطينية "افتقرت إلى العزم الوطيد على الارتقاء بممارسات الكفاح المسلح إلى المستوى الذي بلغته في العقيدة الرسمية، وعلى تطوير تنظيم تلك الممارسات بطريقة تتلاءم مع مهمتها" (ص 664). وهو يعني "غياب التفكير الواضح في شكل ومتطلبات إقامة سلطة لمقاتلي حرب العصابات" (ص 201). كما أن صايغ يبرز الفجوة بين "المقاربات السجالية والوسيلية للكفاح المسلح" (ص 207). ومنّ يستطيع معارضة انتقاداته فيما يتعلق بالمواقف الجبرية المدمرة لدى بعض قادة م. ت. ف.، مثل المرحوم خالد الحسن الذي اعتبر "انتحار" إسرائيل "إمكاناً جدياً" (ص 686)؛ ومنّ يستطيع إنكار أن "م. ت. ف. تباطأت في الاهتمام الجدي بالتطورات الداخلية للمجتمع الإسرائيلي وللسياسات الإسرائيلية" (ص 676)؟

إن المهتمين بالمستقبل السياسي للشعب الفلسطيني يمكنهم جميعاً الاستفادة من هذا الكتاب. إذ إنه يتضمن الكثير مما هو جديد وأصيل. ولعله يتيح لقراء اللغة الإنكليزية أن يطلعوا، أول مرة، على الأدوار الحاسمة التي قام بها في السياسة الفلسطينية أشخاص من أمثال ناجي علوش، ونمر صالح، وممدوح نوفل، ومصطفى الزبري، ومحسن إبراهيم، ومنير شفيق، وزهير محسن، وماجد أبو شرار، وهاني الحسن. ودراسة صايغ لحركة "فتح" ونزاعاتها الداخلية جوهرية، كي نفهم الإخفاقات السياسية والعسكرية التي مرّت بها هذه الحركة.

إن عرض صايغ للوجود الفلسطيني الموقّت في لبنان هو أفضل ما نُشر في هذا الشأن. كما أن تأريخه للفترة 1975 - 1976 من الحرب الأهلية اللبنانية، والاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982، يكان يكون كاملاً. وبينما تتميز فصول الكتاب بدرجة عالية من الإتقان، تبدو مظاهر التسرّع في نهايته، وخصوصاً في الحديث عن الفترة

التي أعقبت الاجتياح الإسرائيلي سنة 1982. كما أن اغتيال أبو إياد وأبو الهول في أوضاع غامضة جداً، لم يذكر إلا بإيجاز (ص 654). ولم يتطرق المؤلف إلى تحليل خلفيات ذلك الاغتيال، وخصوصاً تلك المتصلة بالمفاوضات السرية التي كان أبو إياد يجريها مع أبو نضال. لكن هناك معلومات جديدة في الكتاب عن حجم النزاع بين عرفات وأبو جهاد، وكيف حاول الأول إضعاف نفوذ كل قائد قوي تحت قيادته. ومما يثير الإعجاب أن كتاباً بهذا الحجم ليس فيه سوى القليل من الهفوات والأخطاء. ومن الأمثلة لذلك، أن الشخصية المصرية المؤثرة في كتائب الفداء العربي كانت حسين توفيق، لا توفيق الحكيم (ص 72). كما أنه لا يمكن حصر المواقف المناهضة لليهودية في الإسلام وحده، كما يزعم صايغ، لأن المسيحية هي التي أوجدت أيديولوجيا الكراهية لليهودية (ص 85). وبول فيندلي لم يكن عضواً في مجلس الشيوخ الأميركي (ص 441). والإسلام السياسي لم ينشأ بعد سنة 1967 (ص 143). والركاب الذين قُتلوا في حافلة عين الرمانة كانوا من أنصار الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة، لا جبهة التحرير العربية (ص 361). ومنظمة العمل الاشتراكي الثوري ليست اسماً وهمياً أطلقتها جبهة النضال الشعبي الفلسطيني، وإنما اسم مجموعة لبنانية شقيقة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة، لكنها لم تبق سوى فترة قصيرة (ص 365 – 366). وروابط العمال ليست تروتسكية (والأرجح أنه يعني رابطة الشغيلة) (ص 370)، وإنما مجموعة ماركسية – لينينية – ستالينية.

واستناداً إلى إفادة مغلوطة فيها من أبي إياد، يعتبر صايغ اغتيال السفير الأميركي في لبنان سنة 1976، بتدبير من حزب العمل الاشتراكي العربي – فرع لبنان (ورد في الكتاب حزب العمل العربي الاشتراكي)، أنه نتيجة خطة مدروسة ومدبرة (ص 395). والحقيقة أن الاغتيال كان عملاً ارتجالياً، قامت به وحدة محلية في منطقة رأس النبع في بيروت. وتألّف جبهة المقاومة الشعبية لتحرير الجنوب من الاحتلال والفاشية، والتي انبثقت من حزب العمل الاشتراكي العربي – فرع لبنان، كان حدثاً مهماً حقاً، وقد اقتدت به مجموعات لبنانية أخرى (ص 430). ووراء

الهجوم على ركاب طائرة العال الإسرائيلية في مطار أورلي، سنة 1978، كان مجموعة من الأعضاء السابقين المتحررين من الوهم في حزب العمل الاشتراكي العربي - فرع لبنان، لا الحزب نفسه (ص 433). وهذا الحزب لم ينقرض (ص 561). والاعتداءات على قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة في الجنوب اللبناني، في أيار/ مايو 1978، قام بها حزب العمل الاشتراكي العربي - فرع لبنان، خدمة لمجموعات فلسطينية، ولم تقم بها "مجموعات الرفض" الفلسطينية (ص 431). لكنّ أيّاً من هذه النقاط لا يقلل من أهمية هذا الكتاب.

[.....]

إن هذا التأريخ العسكري الشامل للفلسطينيين يترك النساء خارج إطار الدراسة. فمن المستغرب بالنسبة إلى القارئ الحريص على معرفة اسم كل رجل يشغل أي منصب رفيع أو وضيع، أن يجد النساء اللواتي يشغلن أية مناصب، قد أشير إليهن بـ "امراتين" (ص 189)، أو بـ "امرأة واحدة" (ص 207). فلماذا لا يحدّد المؤلف هوية هؤلاء النساء، ولماذا لا يسمي اللواتي قمن بأدوار عسكرية (أمثال ليلي خالد ومهة أبو خليل كخاطفتين للطائرات، ودلال المغربي كقائدة فدائية، وغيرهن أخريات كثيرات)؟ إن التوثيق للكتاب مكتمل، باستثناء حالات قليلة تحتاج إلى المزيد من الأدلة الوثائقية، مثل إشارة المؤلف إلى عدم ارتياح اللبنانيين إلى هاشم علي محسن (ص 233)؛ ومثل قوله إن وليد قدورة كان عميلاً للمكتب الثاني (ص 302) ولجهاز الاستخبارات السورية (ص 598). ولربما كان الكتاب أسهل للقارئ العادي لو استخدم المؤلف الأسماء الحركية لقادة م. ت. ف. بدل استخدامه أسماءهم الحقيقية: أبو علي مصطفى بدل مصطفى الزبري؛ أبو صالح بدل نمر صالح؛ أبو أحمد فؤاد بدل فؤاد عبد الكريم؛ أبو إياد بدل صلاح خلف؛ أبو جهاد بدل خليل الوزير؛ أبو عدنان بدل هاشم علي محسن؛ أبو الهول بدل هائل عبد الحميد؛ أبو موسى بدل سعيد مراغة؛ أبو اللطف بدل فاروق القدومي؛ أبو الزعيم بدل عطا الله عطا الله؛ أبو الوليد بدل سعد صايل؛ أبو نضال بدل صبري البنا؛ أبو الطيّب بدل الطيّب عبد الرحيم. وخلاصة القول إنه ليس من السهل كبح حماسة المرء تجاه هذا الكتاب المميز وإعجابه به. إنه يملأ فراغاً في الأدب السياسي والأكاديمي. إذ إن المؤلف لم يقدم

خدمة إلى أوساط الدارسين فحسب، بل أيضاً إلى الشعب الفلسطيني عامة. فهو يكتب عن التاريخ المعاصر للفلسطينيين، وعن الذكريات التي ما زالوا يعايشونها. لكن الحكاية مؤلمة، وهي حافلة بالهزائم، والإحباط، والخianات، وعدم الأهلية، والمجازر، والاضطرابات. وبعد قراءة الكتاب، قد يستنتج المرء - بمعزل عن الآراء الخاصة بالمؤلف - أن ياسر عرفات، من خلال سوء الإدارة، والخطورة، والخداع، والنفاق، والقسوة، والدهاء السياسي، والقيادة الاستبدادية، وتشجيع الانشقاقات الحزبية، والسكوت عن الفساد، والغرور، والوحشية، والخضوع للأنظمة الفاسدة، والتعلق المرضي باسترضاء الولايات المتحدة، والحسد الشخصي، قد سبّب ضرراً للقضية الفلسطينية لا يمكن إصلاحه. والمؤلف يقدم المعلومات محتفظاً لنفسه برأيه الشخصي في معظم الأحيان.

أسعد أبو خليل

أستاذ مشارك في دائرة

العلوم السياسية في جامعة

ولاية كاليفورنيا

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>